جامعة البليدة 2 الجزائر

كليـــــة الآداب واللّغات

مخبر اللغة العربية وآدابها

شَهادةُ مُشَاركة في ملتقى وطني

تمنح هذه الشهادة للأستاذ : عبد العزيز تواتي جامعة محمد بوضياف المسيلة

نظير مشاركته في الملتقى الوطني الأول: "**إعجاز نظم القرآن وأثره في اكتساب ملكة اللسان**" الذي نظّمه "**مخبر اللغة العربية وآدابها**" - جامعة البليـــدة 2– بمساهمة المجلس الأعلى للغة العربية ومديرية الشؤون الدينية والأوقاف لولاية البليدة، يومي: 11-12 جوان 2019 بمداخلة عنوانها: " انسجام صوت الفاصلة القرآنية مع الدلالة – دراسة في سورتي القيامة والتكوير-"

عميد الكلية

عميد كلية الآداب و اللغات بالنيابة

محمد طيبـــي

مدير المخبر

رئيس الملتقى

رئيسة الملتقى

د / حسيبة حسين

إعجاز نظم القرآن وأثره في إكتساب ملكة اللسان

11 / 12 جوان 2019

رئيس الملتقى

د/ صـــالح تفـــايجي

إعجاز نظم القرآن وأثره في إكتساب ملكة اللسان

11 / 12 جوان 2019

المداخلة

اسم ولقب المشارك: عبد العزيز تواتي

الرتبة: أستاذ مساعد (أ)

الجامعة: محمد بوضياف ـ المسيلة

الهاتف: 0697019757

البريد الإلكتروني: azizaziztouati@gmail.com

محور المداخلة: الإعجاز اللغوي والبياني للنظم القرآني

عنوان المداخلة: انسجام صوت الفاصلة القرآنية مع الدلالة (دراسة في سورتَيْ القيامة والتكوير)

الملخص:

إن انسجام الأصوات وتناغم الحروف سمة ظاهرة معلومة في القرآن، وقد تشدد العلماء في الأداء والتجويد، فلم يتركوا إدغاما ولا إخفاء ولا مدّا ولا حرفا من الحروف إلا أعطوه حقه، وما ذاك إلا لأن للقرآن نظاما خاصا تتجلى به روعة الصوت وجمال الجرس والنغمات.

ولعل مما يزيد الأمر عجبا هو ذلك الترابط في القرآن بين الصوت والدلالة، فالحرف أشدّ ما يكون تعلقا بمعناه، إذ اللفظ خادم للمعنى كما يقول الجرجاني، وقد ذهب اللغويون قديما من أمثال الخليل بن أحمد الفراهيدي وابن جني وابن فارس إلى أن هناك تناسبا بين أصوات اللغة وأصوات الطبيعة، بل هي محاكاة لها وتقليد لأصواتها، كما نجده في صوت الميم مثلا، والذي يدلّ على معنى الجمع ويقتضيه، ومخرجه يوحي به.

وقد عقد ابن جني في الخصائص بابا لعلاقة الصوت بالدلالة، أسماه: "باب إمساس الألفاظ أشباه المعاني"، ضرب فيه ابن جني أمثلة عديدة عن أصوات وأبنية من العربية تشبه أصواتُها معانيها.

ومن هنا تجيء هذه الدراسة لتسلط الضوء على أواخر حروف الفواصل القرآنية في سورتَيْ القيامة والتكوير؛ لما لاحظناه من العلاقة الوثيقة لهذه الأصوات بالمعاني المسوقة إليها هذه الفواصل، وخصوصا في هاتيْن السورتيْن، ولنكتشف في الأخير السّرّ في اختيار الكلمة القرآنية، من ناحية لفظية صوتية، ومن ناحية دلالية، وإن كلاما يمكنه تحقيق هذا الانسجام بين الصوت والدلالة لمعجزٌ بحقّ، ولا يمكن إلا أن يكون كلام الله سبحانه الذي لا يُعجزه شيء.

مقدمة:

لقد عكف العلماء قديما وحديثا على دراسة القرآن الكريم، واستجلاء كنوزه وأسراره، واكتشاف وجوه إعجازه للبشر، على اختلاف اهتمامات أولئك العلماء وتخصصاتهم، بين ناظر إلى إعجاز القرآن من حيث إخباره بالغيب وقصص الأمم الغابرة، وناظر إليه من حيث لغته وبيانه، ونظمه ورصفه، وتناسبه وانسجامه، إلى آخر يرى الإعجاز في الإخبار بما في الضمائر ودخائل النفوس، غير أن بديع نظم القرآن وتآلف كلماته وعباراته وتناسب ألفاظه ومعانيه قد نال الحظ الأوفر من اهتمام الدارسين وعناية الباحثين، وعلى مستويات عديدة، ومنها المستوى الصوتي الذي لا يزال البحث فيه جاريا، ولاسيما إن تعلق الأمر بأبرز صوت في الآية القرآنية، ألا وهو آخر حرف في الفاصلة، وتعلُّقِ هذا الحرف بالدلالة، وعليه يمكن طرح الإشكال التالي: هل لآخر حرف في الفاصلة معزولا عن بقية أحرفها علاقة بالمعنى المستنبط من الآية؟

تأتي هذه الدراسة لتسلط الضوء على ثنائية الصوت والدلالة، مركّزة على أواخر الفواصل في سورتَي القيامة والتكوير؛ لافتراض نوع من العلاقة بين طرفَي تلك الثنائية، ومن أجل ذلك نقترح خطة متمثلة في محوريْن: الأول بعنوان: الصوت القرآني والدلالة، وفيه ثلاثة مطالب: الاتساق الصوتي في القرآن، ودلالة الصوت القرآني على المعنى، ونماذج من أصوات قرآنية لها دلالات خاصة، فيأخذ هذا المحور سمة العموم، باعتباره يتناول الصوت في القرآن بصفة عامة، ولكن على وجه الإيجاز والاقتضاب، وأما المحور الثاني فيحمل عنوان: انسجام صوت أواخر الفواصل مع الدلالة، بتجسيد هذا الانسجام في نموذجيْن قرآنيّيْن: سورة القيامة وسورة التكوير، وفي الأخير نخلص إلى نتائج البحث المجيبة عن إشكاليته.

1ـ الصوت القرآني والدلالة:

ما من صوت في القرآن الكريم إلا وهو في موضعه الذي لا يحسن أن يحل محله غيره؛ نظرا لما يؤديه من وظائف لفظية ومعنوية.

1ـ 1ـ الاتساق الصوتي في القرآن:

لقد اعتنى القرآن بجرس الأصوات وإيقاعها اعتناءَه بالمعاني والدلالات، وهو لذلك يتخيّر الألفاظ تخيرا يقوم على أساس من تحقيق تناسبٍ صوتي متّسق مع جوّ الآية وجوّ السياق، بل جوّ السورة بأكملها في كثير من الأحيان، ولاسيما السور القصار التي حفل بها العهد المكي، وهذا التناسب بين الأصوات وإحداثه للإيقاع الصوتي البديع هو ما عناه الوليد بن المغيرة بصفة "الطلاوة" عندما وصف القرآن بقوله: (إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق).

وقد ذكر القرآن بعض الحروف الهجائية في أوائل السور، تحديا للبشر بأن يركّبوها ويؤلفوا منها كلاما مثل القرآن، جاء في تفسير ابن كثير(ت 774هـ):« ذكرت هذه الحروف في أوائل السور التي ذكرت فيها بيانا لإعجاز القرآن، وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله، هذا مع أنه تركّب من هذه الحروف المقطعة التي يتخاطبون بها»[1].

ويقول الأستاذ سيد قطب: «هذه الأحرف المتقطعة التي تبدأ بها بعض السور، والتي اخترنا في تفسيرها أنها نماذج من الحروف التي يتألف منها القرآن، فيجيء نسقا جديدا لا يستطيعه البشر مع أنهم يملكون الحروف ويعرفون الكلمات، ولكنهم يعجزون أن يصوغوا منها مثل ما تصوغه القدرة المبدعة لهذا القرآن »[2]، فهي أحرف نماذج، يتألف منها القرآن، وتشير إلى التحدّي أن يؤلفوا منها مثل القرآن.

ولما كانت الألفاظ العربية لا تزيد في عدد حروفها عن الخمسة، فقد جاءت تلك الحروف الاستفتاحية كذلك، فمنها ما جاء على حرف واحد نحو: ن، ق، ص

ومنها ما جاء على حرفين نحو: طس، طه، يس، حم

ومنها ما جاء على ثلاثة نحو: ألم، ألر، طسم

ومنها ما جاء على أربعة نحو: ألمص، ألمر

ومنها ما جاء على خمسة نحو: كهيعص، حمعسق

فهذا نظام أو طريقة مخصوصة جاءت عليها هذه الحروف، دالة على اتساق صوتي في القرآن كله، ولذلك فمما فسّر المفسرون كلمة (متشابها) في قوله تعالى: ﴿ **اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ**﴾[الزمر 23]، أنّ الآية في القرآن تشبه الآية، والحرف يشبه الحرف [3]، ففي حروف القرآن كلها اتساق عجيب، ليس له نظير في كلام الأولين من العرب ولا الآخرين، يقول الرافعي: «الحرف الواحد من القرآن معجز في وضعه؛ لأنه يمسك الكلمة التي هو فيها ليمسك بها الآية والآيات الكثيرة، وهذا هو السر في جملته إعجازا أبديا »[4].

1ـ 2ـ دلالة الصوت القرآني على المعنى:

يُقصد بدلالة الصوت على المعنى أن تكون الكلمة بأصواتها دالة على معناها، فيُسهم كل صوت فيها بإظهار المعنى وتوجيهه، وقد ذكره المحدثون بالقيمة الدلالية للصوت [5]، وعُرف قديما بالمشاكلة، وبرز في توضيح هذه الظاهرة اللغويُّ ابن جني في مواطن من كتابه "الخصائص"، حيث أفرد للظاهرة بابيْن، سمّى أحدهما: تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني، وعنى بالتصاقب التعاقبَ والدنوّ، أي تعاقب الألفاظ لتعاقب المعاني، وسمّى الثاني: إمساس الألفاظ أشباه المعاني، حيث جاء فيه: «فأما مقابلة الألفاظ بما يشاكل أصواتها من الأحداث فباب عظيم واسع، ونهج متلئب عند عارفيه مأموم. وذلك أنهم كثيرا ما يجعلون أصوات الحروف على سمت الأحداث المعبر بها عنها، فيعدّلونها بها ويحتذونها عليها. وذلك أكثر مما نقدّره، وأضعاف ما نستشعره »[6]، ثم يضرب ابن جني لذلك أمثلة، منها (خضم) و(قضم)، فالخضم لأكل الرطب، والقضم لأكل اليابس، فوقع الاختيار للخاء لرخاوتها، والقاف لصلابتها، «حذوا لمسموع الأصوات على محسوس الأحداث »[7]، ومن هنا تبرز مكانة الحرف في بنية الكلمة.

ولعل مما يزيد الأمر عجبا هو ذلك الترابط في القرآن بين الصوت والدلالة، فالحرف أشدّ ما يكون تعلقا بمعناه، إذ اللفظ خادم للمعنى كما يقول الجرجاني، وقد ذهب اللغويون قديما من أمثال الخليل الفراهيدي وابن جني وابن فارس إلى أن هناك تناسبا بين أصوات اللغة وأصوات الطبيعة، بل هي محاكاة لها وتقليد لأصواتها، كما نجده في صوت الميم مثلا، والذي يدلّ على معنى الجمع ويقتضيه، ومخرجه يوحي به[8].

والحقّ أن العبرة إنما تكون في الغالب بدلالة أصوات الجمل والتراكيب على معانيها، وليست بدلالة الصوت المفرد أو الكلمة المفردة فحسب، واجتماع تينك الدلالتيْن إنما يتفق للقرآن الكريم، وكمثال على ذلك سورة الناس، فتراكيب هذه السورة تصوّر معنى وسوسة (الوسواس الخناس) تصويرا كاملا، يساعد على ذلك تكرار حرف السين الذي يتّصف بالهمس والرخاوة.

يقول الدكتور محمد فريد عبد الله في سياق تحليله لدلالات حروف كلمة (اهدنا) من قوله تعالى: ﴿ **اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ** ﴾[الفاتحة 06]: «فحلقية "الهاء" في "اهدنا" لها علاقة بالثبات والإيمان وتمكن اليقين من ملكات النفس، وتكون القناعات. فانبعث الدعاء من كوامن التسليم والرضا بثبات المستمسك بإيمانه استمساكا لا تؤثر فيه التغيرات ولا النوازع، ترسمه "الدال" طريقا مستقيمة، تصل بين مبدأ هو الذات المؤمنة، والمرتجى وهو الله جل وعلا »[9]، ثم يقول عن أحرف كلمة (الضالين) من قوله سبحانه: ﴿ **غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ** ﴾[الفاتحة 07]: «وتتمظهر صورة التهويل بتشدّد "الضاد" التي تجلجل بملء الفم دالة على تعمّد الانحراف والتأصل فيه يحتوي كيان أهله ومتّبعيه، وتأتي "الألف" حاملة صورة فراغ الضّال من الإيمان، والرضا، والحبور، والطمأنينة...وما المد الصوتي الذي يفرضه الترتيل في لفظة "الضالين" إلا إطار لذلك الإصرار الذي يملأ المكان...و"اللام" المشددة مظهر لونيّ لصورة الإصرار الانحرافي الذي بات تطبعا مؤكدا بتكلف أهله»[10].

ويبدو أن هذه التفسيرات غريبة بعض الشيء، ولا تكاد تقنع العقل؛ لما فيها من التكلف الواضح، ومن أجل ذلك ينبغي الحذر في استنباط الدلالات من اللفظ القرآني، ولاسيما من الصوت إذا خفيت علاقته بالدلالة العامة.

1ـ 3ـ نماذج من أصوات قرآنية لها دلالات خاصة:

إن محاولة استكشاف دلالة الصوت يجب أن تُدرج في إطار المعنى العامّ للكلام المنظوم، والذي يُعتبر الصوت جزءا منه، ونضرب لذلك أمثلة من حروف لا تقع في الفاصلة:

• يقول تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ** ﴾[التوبة 38]، والشاهد هنا في كلمة (اثاقلتم)، فأصلها: تثاقلتم، فقلبت التاء ثاء طبقا لقانون المماثلة الرجعية المدبرة، ثم أدغمت فيها، فلما كان الحرف الأول ساكنا جيء بهمزة الوصل؛ لأنه لا يُبتدأ بساكن.

وهذا التشديد في الصوت هو ما قدّم المعنى الدقيق لحال أولئك الذين قعدوا عن الجهاد بعد أن استُنفروا، يقول سيد قطب موضحا هذا المعنى: «يتصور الخيال ذلك الجسم المثّاقل، يرفعه الرافعون في جهد، فيسقط من أيديهم في ثقل. إن في هذه الكلمة "طنّا" على الأقل من الأثقال ! ولو أنك قلت: تثاقلتم، لخفّ الجرس، ولضاع الأثر المنشود، ولتوارت الصورة المطلوبة التي رسمها هذا اللفظ، واستقلّ برسمها»[11].

فالثاء حرف لثوي، وكونه مشددا في الكلمة يجعل اللسان عالقا بأطراف الأسنان، وهذا يجسد حبهم للقعود وتخلفهم عن الجهاد، كأنهم علقوا بالأرض بشدة وقوة، ودون تحرك[12].

• يقول تعالى: ﴿ **قَالَ ادْخُلُواْ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّن الْجِنِّ وَالإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلاء أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ**﴾[الأعراف 38]، فأصل (ادّاركوا): تداركوا، فأنسبُ للتاء أن تنقلب إلى دال تأثرا بالدال الثانية تأثرا رجعيا، بسبب تقاربهما في المخرج، ومن ثم فناؤها فيها بإدغام، وقد اختير اللفظ (ادّاركوا) على تداركوا لما يتمّه الإدغام من المعنى، فالتشديد الحاصل من الإدغام يوحي بتزاحم تلك الأمم يوم القيامة، وتداعيها في دخولها النار بغير نظام، بحيث يعوق بعضها بعضا، كل هذا يشير إليه التشديد في ذلك اللفظ.

• يقول تعالى: ﴿ **فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ** ﴾[الشعراء 94]، فـ«الكبكبة: تدهور الشيء في هوة »[13]، و«معنى "كبكبوا" كُبُّوا فيها كَبًّا بعد كَبٍّ فإن "كبكبوا" مضاعف كُبّوا بالتكرير وتكرير اللفظ مفيد تكرير المعنى »[14]، يقول الزمخشري: «والكبكبة تكرير الكب جعل التكرير في اللفظ دليلا على التكرير في المعنى كأنه إذا ألقي في جهنم ينكب مرة بعد مرة حتى يستقر في قعرها »[15]، وهكذا فمضاعفة الصوت وتكريره له أثرٌ في توجيه الدلالة وزيادةٌ في المعنى.

• يقول تعالى: ﴿ **لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ** ﴾[البقرة 286]، فأتى بالفعل الأول مجردا، وبالفعل الثاني مزيدا بالتاء: (اكتسبت) على وزن: افتعلت، فما دلالة إضافة التاء ؟ يقول الزمخشري: «فإن قلت: لم خص الخير بالكسب، والشر بالاكتساب؟ قلتُ: في الاكتساب اعتمال فلما كان الشر مما تشتهيه النفس وهي منجذبة إليه وأمارة به كانت في تحصيله أعمل وأجد، فجعلت لذلك مكتسبة فيه، ولما لم تكن كذلك في باب الخير وصفت بما لا دلالة فيه على الاعتمال»[16]، فهذا حرف واحد صنع الفرق.

وجاء في الإتقان: «أتى بلفظ (الاكتساب) المشعر بالكلفة والمبالغة في جانب السيئة لثقلها »[17]، فالتاء حرف شديد كما هو معروف من صفاته، ولذلك أُتِيَ به مناسبا لمشقة السيئة التي تقترفها النفس.

• يقول تعالى: ﴿ **وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ** ﴾ [فاطر 37]، والصوت المقصود هنا هو الطاء في (يصطرخون)، على وزن (يفتعلون)، فأصل الطاء تاءٌ؛ قُلبت لتناسُب الصاد والطاء من حيث اشتراكهما في صفتَيْ الجهر والإطباق ، وذلك جريا على قانون المماثلة التقدمية المقبلة، لكنّ تأثّر الحرف الثاني بالأول انتهى مع هذه المرحلة، فلم يتطور إلى درجة فنائه فيه بالإدغام.

وحين الرجوع إلى الفرق الدلالي بين صرخ واصطرخ تتجلى لنا الفائدة المعنوية من الزيادة في بنية كلمة: يصرخون، هذه الزيادة المتمثلة في حرف الطاء، يقول الطاهر ابن عاشور: «(يصطرخون) مبالغة في (يصرخون) لأنه افتعال من الصراخ وهو الصياح بشدة وجهد، فالاصطراخ مبالغة فيه، أي يصيحون من شدة ما نابهم»[18].

فشدة ارتفاع أصوات أهل النار بالصراخ ومشاركتهم جميعا فيه وتكرارهم ذلك منهم لا يكفي أن يُعبّر عنه بالفعل المجرد (يصرخون)، لذا جاءت تاء الافتعال لتدل على المبالغة، فلما جاورت الصاد المطبقة تحولت إلى التفخيم لتصبح طاء، فيكون في تفخيمها قوة مبالغة في الفعل، يُضاف إلى ذلك اجتماع حرفيْن يتصفان معا بصفة الجهر، وهما الصاد والطاء، ولا يخفى تناسب هذه الصفة مع المعنى المراد من شدة صراخ أهل النار.

• يقول تعالى: ﴿ **وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ** ﴾ [يوسف 23]، ومحل الشاهد هنا في فعل: (غلّق)، على وزن: فعّل، بتضعيف العين، فلم يأت التعبير بصيغة: أفعل، أي أغلق، التي تدل على القيام بالفعل مرة واحدة، فالفعل: غلّق دالٌّ على التكثير، وقد قال بعض المفسرين إنها سبعة أبواب غلّقتها امرأة العزيز [19]؛ لتحول دون تفلت يوسف عليه السلام منها، وتأمن إذا استطاع يوسف فتح بعض الأبواب ألا يأتي على جميعها.

كما يمكن حمل المعنى على أن التضعيف في الفعل يدل على شدة الفعل وقوته وإحكامه [20]. ولا مانع من الجمع بين المعنيين، وهو دلالة اللفظ على كثرة الأبواب التي غلّقتها، وشدة التغليق وإحكامه والمبالغة فيه.

وعلى كلٍّ فهذه المعاني قد دلّ عليها ذلك التشديد في الفعل: غلّق، ولو قال سبحانه: أغلقت الأبواب، لما لزم من معنى الإغلاق كل تلك القوة والإحكام، فضلا عن عدد الأبواب الذي يمكن ألا يتجاوز الثلاثة.

2ـ انسجام صوت أواخر الفواصل مع الدلالة:

نحاول تجسيد هذا الانسجام في نموذجيْن قرآنيّيْن هما سورتا القيامة والتكوير:

2ـ 1ـ سورة القيامة:

عندما نسلط الضوء على سورة القيامة، فننظر في تنوع فواصلها المنتهية بحروف مختلفة، نكتشف تناسب هذه الحروف مع معاني الآيات الموافقة لها، ففي آياتها الأولى ﴿ **لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ (1) وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ (2) أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَلَّن نَجْمَعَ عِظَامَهُ (3) بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ (4) بَلْ يُرِيدُ الإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ (5) يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ (6)** ﴾ نجد الفواصل التالية: القيامة، اللوامة، عظامه، بنانه، أمامه، القيامة، تنتهي جميعا بحرف الميم، عدا فاصلة واحدة تنتهي بالنون، والنون والميم قريبتان من حيث ما فيهما من الغنّة والهُويّ، ولما تجمع العرب بينهما في القوافي [21]، مع عدم اعتبارٍ لهاء السكت، والميم دالّة على الجمع كما أسلفنا، فبالنظر إلى معاني هذه الآيات نجد معنى الجمع متحققا فيها، فيوم القيامة هو يوم الجمع، حيث قال سبحانه في سورة أخرى: ﴿ **يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ** ﴾[التغابن 09]، وذَكَر الله تعالى في تلك الآيات جمع عظام الإنسان عند بعثه، وتسوية بنانه، ولا يخفى ما تقتضيه التسوية من معنى الجمع.

وفي الآيات ﴿ **فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ (7) وَخَسَفَ الْقَمَرُ (8) وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ (9) يَقُولُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ (10) كَلاَّ لا وَزَرَ (11) إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ (12) يُنَبَّأُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ (13) بَلِ الإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (14) وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ (15)** ﴾ ومعها الآيات ﴿ **وَتَذَرُونَ الآخِرَةَ (21) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (22) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (23) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ (24) تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ (25)** ﴾ نجد الفواصل التالية: البصر، القمر، القمر، المفر، وزر، مستقر، أخّر، بصيرة، معاذيره، الآخرة، ناضرة، ناظرة، باسرة، فاقرة، وكلها منتهية بحرف الراء، وهذه الراء قال عنها سيبويه: «إذا تكلمت بها خرجت كأنها مضاعفة »[22]، وهي «حرف مجهور مكرر»[23]، وتكرارها يشير إلى تكرار الحياة من جديد بعد

الموت، وهذا ما يُستنبط من معاني هذه الآيات التي تتحدّث عن الآخرة وما يحدث فيها من ظواهر كونية، وما يحصل فيها للإنسان من مآلات.

وفي الآيات ﴿ **إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (17) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (18) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ (19)** ﴾ نجد الفواصل التالية: قرآنه، قرآنه، بيانه، فهي منتهية بحرف النون المعروف بغنّته، والغنة صوت حسن، وهي «صوت لذيذ مركب في جسم النون والميم لا عمل للسان فيه. قيل إنه شبيه بصوت الغزالة إذا ضاع ولدها»[24]، وهكذا ينسجم حسن صوت الغنة مع ذكر القرآن وتلاوته في هذه الآيات.

وفي الآيات ﴿ **كَلاَّ إِذَا بَلَغَتْ التَّرَاقِيَ (26) وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ (27) وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ (28) وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ (29) إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ (30)** ﴾ نجد الفواصل: التراقي، راق، الفراق، الساق، المساق، منتهيةً بحرف القاف القريب مخرجه من الحلق، وفيه شدّة، والشديد هو «الحرف الذي يمنع الصوت من أن يجري فيه»[25]، وفي هذه الآيات حديث عن وصول الروح عند خروجها من الجسد إلى الحلق، وما يقع للإنسان المحتضر في هذه اللحظات الشديدة الحرجة، يقول الأستاذ سيد قطب: «وحالة الاحتضار ترتسم ويرتسم معها الجزع والحيرة واللهفة ومواجهة الحقيقة القاسية المريرة، التي لا دافع لها ولا راد..ثم تظهر النهاية التي لا مفر منها.."إلى ربك يومئذ المساق»[26]، وبهذا تنسجم شّدّة حرف القاف مع شّدّة ذلك الموقف.

وفي الآيات ﴿ **فَلا صَدَّقَ وَلا صَلَّى (31) وَلَكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّى (32) ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى (33) أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى (34) ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى (35) أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى (36) أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَى (37) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى (38) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَى (39) أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَى (40)**﴾ نجد الفواصل: صلى، تولى، يتمطى، أولى، أولى، سدى، يمنى، سوى، الأنثى، الموتى، فتنتهي هذه الفواصل بالألف المقصورة، والألف هو أول الحروف في الترتيب، ولعل في هذا إشارة إلى الرجوع في الكلام إلى حياة الإنسان سواء في بداية خلقه من نطفة، أو في بداية عمله وحياته.

2ـ 2ـ سورة التكوير:

وفي سورة التكوير نستطيع أن نكتشف بيسر انسجام صوت أواخر فواصلها مع الدلالات العامة من آياتها، ففي الآيات الأولى ﴿ **إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (01) وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ (02) وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ (03) وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ (04) وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ (05) وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ (06) وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ (07) وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ (08) بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ (09) وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ (10) وَإِذَا السَّمَاء كُشِطَتْ (11) وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ (12) وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ (13) عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ (14)** ﴾ نجد الفواصل الآتية: كُوّرتْ، انكدرتْ، سُيرتْ، عُطّلتْ، حُشرتْ، سُجّرتْ، زُوّجتْ، سُئلتْ، قُتلتْ، نُشرتْ، كُشطتْ، سُعّرتْ، أُزلفتْ، أحضرتْ، فتنتهي هذه الفواصل بحرف التاء الذي هو من حروف الشّدّة، فتناسب هذه الشّدّة ذلك الموقف الذي يصفه لنا القرآن في هذه الآيات، وهو يوم القيامة الذي فيه من الأحداث الكونية ما فيه، فـ «هذه الأحداث الكونية الضخام تشير بجملتها إلى أن هذا الكون الذي نعهده. الكون المنسق الجميل، الموزون الحركة، المضبوط النسبة، المتين الصنعة، المبني بأيد وإحكام. أن هذا

الكون سينفرط عقد نظامه، وتتناثر أجزاؤه، وتذهب عنه صفاته هذه التي يقوم بها، وينتهي إلى أجله المقدر»[27]، بالإضافة إلى كثرة حركات الضّمّ في هذه الفواصل التي هي في أغلبها عبارة عن أفعال مبنية للمجهول مضموم أولها، وتزيد كثرة الضّمّ الذي هو أقوى الحركات وأشدّها من وضوح تلك المناسبة.

وفي الآيات ﴿ **فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ (15) الْجَوَارِ الْكُنَّسِ (16) وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ (17) وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ (18)**﴾ نجد الفواصل التالية: الخنّس، الكنّس، عسعس، تنفّس، منتهيةً بحرف السين الذي يتّصف بالهمس والرخاوة، يجري فيه النَّفَس جريان أنفاس الصباح من قوله: (والصبح إذا تنفس)، و «التنفس: حقيقته خروج النَّفَس من الحيوان، استعير لظهور الضياء مع بقايا الظلام على تشبيه خروج الضياء بخروج النَّفَس على طريقة الاستعارة المصرحة، أو لأنه إذا بدا الصباح أقبل معه نسيم فجُعل ذلك كالتنفس له على طريقة المكنية بتشبيه الصبح بذي نفَس مع تشبيه النسيم بالأنفاس »[28]، فما أروع مقابلة تنفس الصبح بجريان الهواء عند النطق بحرف السين !

وأيضا فإن الخُنّس جمع خانسة، والكُنّس جمع كانسة، أي الظبية حين تختفي أو تدخل في كِناسها، والكِناس مكان مبيتها، تشبيها للكواكب المختفية في الفضاء بالظباء [29]، وما أعجب الشبه بين هذا الاختفاء وبين الهمس الذي هو اختفاء الصوت، والذي هو صفة حرف السين ! ومن هنا نلاحظ بوضوح شدة تعلق صوت الفاصلة بالمعاني التي سيقت في الآية، ولا يسع المتأمل إلا اليقين والجزم بإعجاز هذا الكلام الذي لا يستطيع بشر الإتيان بمثله.

وفي الآيات ﴿ **إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (19) ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (20) مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ (21) وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ (22) وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ الْمُبِينِ (23) وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ (24) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ (25) فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ (26) إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ (27) لِمَن شَاء مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ (28) وَمَا تَشَاؤُونَ إِلاَّ أَن يَشَاء اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (30)**﴾ نجد الفواصل التالية: كريم، مكين، أمين، مجنون، المبين، ضنين، رجيم، تذهبون، العالمين، يستقيم، العالمين، فتتراوح الفواصل بين الميم والنون اللتين تمتازان عن الحروف الأخرى بغنّة حسنة تتناسب وذكر القرآن في هذه الآيات، حيث قال: (إنه لقول رسول كريم)، ف «ضمير "إنه" عائد إلى القرآن ولم يسبق له ذكر ولكنه معلوم من المقام في سياق الإخبار بوقوع البعث فإنه مما أخبرهم به القرآن وكذبوا بالقرآن لأجل ذلك »[30]، وقال من ضمن ما قال: (وما هو بقول شيطان رجيم)، وهذا «رجوع إلى ما أقسم عليه من أن القرآن قول رسول كريم »[31]، وقال أيضا: (إن هو إلا ذكر للعالمين)، والذكر هو القرآن كما هو معلوم.

خاتمة:

بعد هذه الدراسة المتواضعة لانسجام أصوات الفواصل مع الدلالات العامة في الآيات القرآنية يمكن أن نخلص إلى هذه النتائج:

ـ الصوت القرآني هو صوت معجز بحقّ، فهو ـ إضافة إلى ما يؤديه من دور في بنية الكلمة ـ يتّخذ له وظيفة أخرى، حيث يشير بنفسه إلى الدلالة من الكلام الذي هو مندرج فيه، ولاسيما إن كان الصوت هو آخر الفاصلة في الآية القرآنية.

ـ سورة القيامة وسورة التكوير من السور التي تتّضح فيها علاقةُ الصوت وصفاته بالدلالة العامة، فبقليل من التأمل والنظر يمكن استنتاج تلك العلاقة، ولعل التعمق في التأمل وإدامة النظر تتيح اكتشاف علاقات أخرى.

ـ لا ينبغي الجنوح بالعلاقة بين الصوت والمعنى إلى تفسيرات غريبة وغير مقبولة، والضابط في ذلك ما وافق العقل وكان قريب المأخذ، سهل التناول، مقبول الفكرة، وإلا فهو كلام الله تعالى الذي لا يُؤخذ فيه بالهوى والرأي.

ـ ترقى فكرة تعلق الصوت بالدلالة إلى أن تمثّل بابا من أبواب الإعجاز القرآنيّ، وتؤكد هي الأخرى بأن هذا القرآن هو من عند الله عز وجل، ولا يمكن لبشر أن يأتي بمثله.

الهوامش:

[1] إسماعيل بن كثير، تفسير القرآن العظيم، تح: سامي بن محمد السلامة، دار طيبة، الرياض، ط 1، 1420هـ/1999م، ج1، ص160.

[2] سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، القاهرة، ط32، 1423هـ/2003م، ص2301.

[3] يُنظر: الجامع لأحكام القرآن، ج18، ص268. تفسير ابن كثير، ج07، ص93. فتح القدير، ص1280.

[4] مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، دار الكتاب العربي، بيروت، ط 09، 1393هـ/1973م، ص211.

[5] يُنظر: الصوت والدلالة في ضوء التراث وعلم اللغة الحديث للدكتور محمد بوعمامة، مجلة التراث العربي، دمشق، عدد 85، يناير 2002، ص11.

[6] أبو الفتح عثمان بن جني، الخصائص، تح: محمد علي النجار، دار الكتب المصرية، دار الكتب العلمية، ج02، ص157.

[7] المصدر نفسه، ج02، ص158.

[8] يُنظر: ابن قيم الجوزية، التفسير القيم للإمام ابن القيم، تح: محمد حامد الفقي، دار الكتب العلمية، بيروت، (دون ت)، ص205 وما بعدها.

[9] محمد فريد عبد الله، الصوت اللغوي ودلالاته في القرآن الكريم، دار الهلال، بيروت، ط1، 2008م، ص94.

[10] المرجع نفسه، ص95.

[11] سيّد قطب، التصوير الفني في القرآن، دار الشروق، القاهرة، ط16، 1423هـ/2002م، ص91، 92.

[12] يُنظر: أحمد ياسوف، جماليات المفردة القرآنية، دار المكتبي، دمشق، ط2، 1419هـ/1999م، ص159.

[13] الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، تح: صفوان عدنان داوودي، دار القلم، دمشق ، ط04، 1430هـ/2009م ص695.

[14] محمد الطاهر ابن عاشور، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، مج19، ص152.

[15] أبو القاسم جار الله محمود بن عمر، الكشاف، دار المعرفة، بيروت، ط03، 1430هـ/2009م، ص764.

[16] المصدر السابق، ص159.

[17] جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، مؤسسة الرسالة، دمشق، ط01، 1429هـ/2008م، ص593.

[18] التحرير والتنوير، مج22، ص318.

[19] يُنظر: فخر الدين الرازي، مفاتيح الغيب، دار الفكر، بيروت، ط 1، 1401هـ/1981م، ج18، ص115، والكشاف ص509.

[20] يُنظر: التحرير والتنوير، ج12، ص250.

[21] يُنظر: سرّ صناعة الإعراب، ص422.

[22] الكتاب، سيبويه، عمرو بن عثمان بن قنبر، تح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط 02، 1402هـ/1982م، ج04، ص136

[23] أبو الفتح عثمان بن جني، سر صناعة الإعراب، تح: حسن هنداوي، دار القلم، دمشق، ط 2، 1413هـ/1993م، ص191.

[24] عطية قابل نصر، غاية المريد في علم التجويد، ط04، 1414هـ/1994م، ص71.

[25] سر صناعة الإعراب، ص61.

[26] في ظلال القرآن، ص3772.

[27] المرجع نفسه، ص3837.

[28] التحرير والتنوير، ج30، ص154.

[29] يُنظر: المرجع نفسه، ج30، ص152.

[30] المرجع نفسه، ج30، ص154.

[31] المرجع نفسه، ج30، ص163.